الخاتمة

تبين من خلال البحث كيف كان الشيخ رشيد، ومدرسة المنار عموماً، يعمل فهمه لمقاصد الشريعة في مجمل ما تناوله من قضايا في كتاباته، خصوصاً في هذا التفسير، مسترشداً بمعاني التشريع وحكمه، ومتوسلاً بعلل الأحكام للاهتداء إلى حكم الله في الوقائع التي تستجد للناس في مختلف مناحي حياتهم. وقد تأكد له صدق اجتهاده وقناعاته من خلال ما عاينه أو مارسه في الميدان، إن على المستوى التربوي أو الاجتماعي أو السياسي، أو استخلصه من تجارب سابقيه، ومنهم أستاذاه المبرزان، الإمامان عبده، والأفغاني.

فمقاصد الشريعة هي اللحمة والسداة التي توجه تفكيره، وتجمع خيوطه، وتنير له الطريق كلما حصل له التباس أو اعترضه إشكال، بها يحسم في الخلافات، ويرجح بين الآراء المتعارضة في كثير من القضايا الاجتهادية.

لدى الشيخ رشيد يقين بأن الشريعة الإسلامية لا غرض لها سوى مصالح العباد، لذلك تحراها في أحكامها المختلفة، وفي كل المجالات، وفسر النصوص تفسيراً مصلحيّاً، لا تكلف فيه ولا تعسف، وقد أوتي من العلم ما يجعله أهلاً لذلك. ولم ينظر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى النصوص نظرة تجزيئية، ليستنتج الحكمة والمصلحة، بل يجيل النظر في الموضوع كله، وفي نسقه التشريعي، وهو ما جعل تفسيره أقرب إلى التفسير الموضوعي.

إن هذا التوجه نحو التفسير الموضوعي للآيات في المنار يجلي النظرة المقصدية التي يعتمدها صاحبه في الكشف عن مقصود من مقاصد الشارع من عدة آيات، وإن اختلفت مواضعها وترتيبها، وأحياناً من سورة أو عدة سور، فالسيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن لم يسعفه الوقت، ولم يمهله الأجل لإتمام تفسيره، إلا أنه لامس كل القضايا

التي عالجها القرآن الكريم كما أوضحت في الفصلين الأخيرين، ولئن فاته شيء من هذا، فإنما هو بعض التفاصيل التي وعد باستكمالها في إبانها وموضعها المناسب.

إن منهج المنار في الإصلاح متكامل ومنسجم، يكشف عن عقل غائي تعليلي مقاصدي، لا يغفل ولو للحظة عن العلاقة بين المسببات وأسبابها، والمعلولات وعللها، والأحكام وغاياتها، ويدرك الفرق بين الأوامر التكوينية التي وقف عندها كثيراً لنقد الذات، وجلدها أحياناً، كما رأينا في السنن التي لا تحابي أحداً، وبين الأوامر التكليفية التي انتقد المسلمين في الانشغال بجانبها الشكلي، وإهمال مقاصدها وأبعادها ونسقها العام، متتبعاً الحكم والمصالح المترتبة عن الالتزام بها في الدنيا والآخرة، دون التمييز بين ما هو عقدي أو أخلاقي أو تشريعي عملي...

منهج استحضر فيه معطيات الواقع ومحكمات الشرع، مما وسمه بالواقعية، والاعتدال، والموازنة، وجعله بحق مترجماً لخصائص الشريعة الإسلامية، ساعده في ذلك سعة ثقافته وتنوعها من جهة، ونشاطه الميداني، وممارسته التطبيقية من جهة أخرى.

من ضمن المرتكزات المنهجية لهذا المنحى المقاصدي في فكر المنار المزاوجة بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، فبهما يجمع بين مقاصد الخلق ومقاصد التشريع، ولذلك نجد حضورا للعلوم الشرعية، والعلوم العصرية معاً، وتوظيفا لها بعقلية غائية سننية، تربط صلة المسلم بربه من خلال تحقيق رسالته المنوطة به، وهي العبودية لله، وعمارة الأرض، وحسن الخلافة فيها، فحري به أن يكون سباقاً إلى كل اكتشاف، معنياً بكل ابتكار، فاعلاً في الأحداث ومتفاعلاً معها، معطياً وموجهاً وقائداً ورائداً، حاملاً لمشعل الحضارة وهادياً للأمم ومرشداً.

إن الاهتمام بمقاصد الشريعة، جعل أئمة المدرسة متفقين في الاجتهاد في الدين، ومذهب التأويل في القرآن، واستخدام العقل، لهذا تطرق كل واحد منهم في كتبه إلى قضايا العقيدة، بوصفها الأساس الذي تتأسس عليه بقية التصورات، فمن العقيدة ينطلقون، وإليها يعودون.

لم يقف صاحب المنارعند حد التفسير، بل تعداه إلى التطبيق، فتعامل مع الأحداث المختلفة في عصره وفق منظور مقصدي، فتكيف مع بعض الأوضاع التي تستدعي ذلك، وثار على أخرى مما لا يقبل المهادنة، وساوم في أخرى بما تمليه المصلحة العامة، ويقلل المفاسد...

يلح أصحاب المنار عموماً في عملهم الإصلاحي على إحياء العلوم العقلية، باعتبار العقل مكملاً للدين، فهو الذي يمكّن المسلمين من فهم دينهم، وقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية، والنصوص الشرعية في غير وجهها الحقيقي.

يلحون على ضرورة تعلم العلوم، والفنون المفيدة للأمة، وتعلمها من أوربا، وذلك لمحاربة الجهل الذي عاق التنمية وفوّت فرصها، من جهة، ومن جهة أخرى لتقديم الإسلام للغربيين، وبيانه كما أنزله الله تعالى، وبينه رسوله الأعظم بسنته المتبعة ،التي كان عليها أهل العصر الأول، سالماً من البدع والآراء المذهبية.

ولدى الأفغاني وعبده قناعة راسخة بأن مآل الإفرنج إلى الإسلام، لكن إسلام القرآن، لا إسلام مسلمي عصرهم؛ لأنَّه ربما آل الأمر إلى أخذ الشعوب الإسلامية بالوراثة، دون العلم والحكمة إلى أخذ الإسلام عنهم.[1]

بدا لنا من خلال عدة موضوعات كيف نتعامل مع أحداث التاريخ الإسلامي وأمجاده، وكيف نفيد منها؛ لكي نصل حاضرنا بماضينا. وتجربة المنار في محيطها آنذاك، قابلة للتكرار في أي زمان، فلا زلنا إلى يومنا هذا نعيش المشكلات ذاتها، ونواجه التحديات نفسها، ولا أبالغ إن قلت، ونبارز العدو ذاته بلحمه وشحمه ودمه، ودسائسه ومكايده وطموحاته، مهما تطورت أساليب المناورة، ومهما استبدل اللاعبون مواقعهم في الميدان.

أسفر البحث عن كيفية استثمار مناهج العبادة، وقضايا التشريع، وما وراءها

(١) المرجع السابق، ج١٠، ص٣٦٢.

من حكم سامية من أجل استعادة الذاكرة، والثقة في النفس، وأخذ الكتاب بقوة، تمسكا بسنة الأنبياء والمرسلين، ورأينا في هذا الصدد كيف يحارب الشيخ الاستكانة والخمول والدروشة، والارتماء في أحضان الخرافة والدجل التماساً للعصمة.

كشف لنا عن رؤية منهجية في تفعيل الدين بكل مكوناته في الحياة، فهو عقيدة تدفع، وشريعة ترفع، وقيم تحكم، وينشئ أمة تجمع، ويقيم حضارة تفعل وتشهد، ويؤسس لسنن تقضي، ولمقاصد تحفظ، إنها منظومة سباعية لا يمكن أن تكون في بنيتها، ونسقها، وعلاقاتها إلا عنواناً للفعل والتفعيل والفاعلية.

إن الإضافة النوعية التي أضافها الشيخ رشيد، ومعه أستاذه بطبيعة الحال، لتفسير القرآن الكريم، هي الربط المحكم بين المرجعية التراثية، بكل مكوناتها من قواعد التفسير، والأصول، واللغة، والبلاغة، والمنطق، وقد أخذا فيها بحظ وافر، ومقاصد الشرع وفقه الواقع مع الاستنارة بعلوم العصر، وهو ما أضفى على المنار وأكسبه نكهة خاصة، يرتاح له السلفي الأثري، والعقلاني المنفتح، ويلبي رغبة المبتدئ والمنتهي، يجد فيه كل باحث بغيته، وكل ناشد ضالته.

آفاق البحث:

إذا حظيت مدرسة المنار بدراسات مستفيضة، خصوصاً على المستوى الإصلاحي، وعني بأعلامها عناية خاصة، فإن رصد مميزات تفكير هؤلاء العلماء، وما لها من أثر على نطاق واسع، في نفوس أبناء الأمة، وكذا معالم منهجهم في الكتابة والخطابة، لم يستوقف بعد، حسب علمي، أحداً من الباحثين، فوجدته مجالاً خصباً وبكراً، بالإمكان استثماره في تعبئة طاقات علماء الأمة، دعاة وخطباء ومفكرين ومصلحين وكتّاباً وصحفيين، وجمعيات وحركات إسلامية، وكل من يحمل رسالة الكلمة وأمانة الفكرة، فتُستلهَم تجربة المنار، منهجاً وفكراً ورؤى، ففيها من الإبداع ما يدهش العقول ويحير الألباب، فلا زال ما خطته أنامل أصحابها صالحاً لأن يقرأ، وكأنه كتب لنا وعنا، لا لغيرنا أو عنه، وهي ميزة كتابات العلماء الحكماء.

أما أن ينصب الاهتمام على تفسير المنار، بوصفه مرحلة انتقالية، في مناهج التفسير، وأن ترصد أسباب ذيوع صيته، فمما لاشك أنه يفتح شهية الباحث لمزيد من البحث والتقصي، خصوصاً وأن المنار موسوعة تفي بحاجيات كل المتخصصين تقريبا، ولا يسع الباحث والقارئ إزاءها سوى أن يندب حظه في عدم اكتمال أجزائها.

وتناولي للفكر المقاصدي للمدرسة لا ينير سوى زاوية من زوايا الإصلاح، سواء في التعامل مع نصوص الشرع، أو تنزيلها على الواقع، أو استشراف غد أفضل في محاولة لحل مشكلات الأمة، وتجاوز تحدياتها، وفي مقدمتها كيف تكسب رهان التنمية، وتنفتح على تجارب الأمم الأخرى، وتفيد مما لديها ولا سيما على المستوى التقني والصناعي، دون أن تفقد خصوصياتها، وتنسلخ من هويتها؟

وهو هاجس سكن السيد رشيد رضا، ولم يفارقه في حله وترحاله، فعليه عاش وعليه مات، وفي سبيله نذر أن يلقى الله، ولا نزكيه عليه ولا أحدا غيره.

ومن جهة أخرى أبرز البحث كيف كان تأثير المنار في من أتى بعدها، ولكن في إشارات سريعة تحتاج إلى من يعمق البحث فيها، خصوصاً على مستوى التفكير المقاصدي، فقد صدق عليها فعلاً وصف المنار، ووصف الإحياء.

وأثار البحث علاقة المقاصد بالتفسير الموضوعي للقرآن، ومن شأن التفرغ لهذه المسألة، والانكباب على فرز خيوطها، وجمع دعائمها ومؤيداتها، أن ينتج لنا نظرية في التفسير المقاصدي الموضوعي تلتقي عنده وجهات النظر المختلفة؛ لما للمقاصد من مصداقية عند الجميع؛ إذ تجمع ولا تفرق، وتبني ولا تهدم، وتيسر ولا تعسر.

فإن كنت مصيباً وموفقاً فيما قدمت فمن الله، فله الحمد والمنة، وأسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وإن كنت مخطئاً فمني ومن الشيطان، ويكفيني جهد المقلِّ وأجر الاجتهاد، وأسأله سبحانه الصفح والغفران، والحمد لله رب العالمين.